

مظاهر التدين عند البربر القدماء

الملخص :

في هذا البحث المتواضع تلخيص لمظاهر التدين عند سكان المغرب القدماء قبل الفتح الإسلامي ، وعرض لآراء بعض المستشرقين و المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ هذه المنطقة من شمال إفريقيا، مستندين إلى ما بقي من آثار ذلك التدين إلى اليوم . لقد امتزج عند سكان المغرب القدماء الدين المحلي بالعناصر الوافدة عليهم من خارج المغرب، لكن دون أن يفقدوا مقومات شخصياتهم الدينية والاجتماعية .

المجتمع المغربي :

كان سكان المغرب قبل الفتح الإسلامي مزيجاً من عناصر مختلفة : العنصر القرطاجي الفينيقي الأصل، العنصر البربري المحلي، والعنصر الأوروبي : صقلية اليونان ، قبرص. وإن كان يمثل نسبة ضئيلة من مجموع السكان. يبدأ العصر التاريخي في المغرب العربي بمجيء الفينيقيين. وقد تم تأسيس قرطاج سنة 814 قبل بداية الاحتفال بالألعاب الأولمبية 776 ق م.

لم تكن للبربر ديانة مكتملة متطورة، وقد اقتبسوا من ديانات الوافدين عليهم . وقد نتج عن ذلك خلط في الفكر الديني في المجتمع البربري .

بعد اكتشاف نصوص كثيرة عثر عليها في منطقة " جبيل " و " أوجاريت " تبين أن بعض مظاهر هذا الدين من أصل أسيوي سام ينتشر فيه الاعتقاد في ظاهرة الخصوبة و الإنتاج، والإيمان ببعض القوى الطبيعية الموجودة في محيط الإنسان وبيئته .⁽¹⁾

أ. بلعري محمد

قسم علم الاجتماع

كلية الآداب والعلوم الإنسانية و الاجتماعية

جامعة تلمسان

39- البيضاوي: تفسير البيضاوي، ج 03، تح: عبد القادر عرفات العشاحسونة، دار الفكر، بيروت، 1996.

40- محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي أبو عبد الله : الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد عبد العليم البردون، ج01، ط02، دار الشعب، القاهرة.

41- محمد بن جرير الطبري: تفسير الطبري، ج01 -، دار الفكر، بيروت، 1405.

آلهة البرابرة القدماء :

لم تكن للبربر آلهة كثيرة كما كان الأمر عند اليونانيين مثلاً. ولعل أشهر آلهتهم الإلهة "تانيت" Tanit. والمرجح عند المؤرخين أنها بربرية الأصل لعدم وجود أصول لها عند الفينيقيين.

وهي إلهة الإنتاج والخصوبة. والإله بعل حمون Hammoun . Ball ويعتقد أن له صلة بالإله المصري آمون ، ومن الممكن أن يكون هو الإله " آمون " وقد انتشرت بعض مبادئه في شمال إفريقيا.

وقد عثر على رسوم لأكباش مقدسة على رأسها قرص الشمس في كل من الجزائر وليبيا ، ويمكن اعتبارها مرادفة للكباش المصري المقدس الذي يرمز للإله آمون (2) . ولا يستبعد أن يكون " بعل حمون " جمعاً بين إله المصريين وإله الفينيقيين معا ولعل ما يجلب الانتباه هنا هو وجود ظواهر دينية مصرية كأسماء الآلهة وأسماء بعض الفراعنة، وأغلب الظن أنها انتقلت إلى المغرب عن طريق الرحلات التجارية (3).

ويذهب ألفرد بل Alfred Bel إلى أن الإله " آمون " إله بربري محلي، ولكن شخصيته لم تكن واضحة كل الوضوح ولم يتخذ هذا الإله الوحيد الذي يمكن أن نعزو إلى البربر إبداعه، ملامح وصفات أوضح إلا تحت تأثير قرطاجة ثم روما من بعد (4).

كان القرطاجيون يؤمنون بالعالم الآخر، فخصصوا مقابر لدفن موتاهم وزوادوها ببعض ما يحتاجه الميت في حياته الأخرى .

ومن مظاهر التدين عندهم ظاهرة التضحية البشرية وقد كانت واسعة الانتشار في مجتمعهم، وكان يرجى منها التقرب من القوى الإلهية المختلفة رغبة في استرضائها، والحصول على النصر والسعادة في المجتمع الديني، وتعود هذه الظاهرة الدينية في أصلها إلى الكنعانيين والفينيقيين في كل من فلسطين ولبنان . وقد عثر على رماد الأطفال الذين كان يضحي بهم في معابد الآلهة . وهذا دليل يرجح ما ذهب إليه المؤرخون اليونان والرومان (5) .

ويسبدو أن هذه الظاهرة التي وفدت إلى المغرب مع الفينيقيين لم تنتقل إلى سكان المغرب الأصليين ولا انتشرت فيهم، ولعل ذلك راجع إلى عدم وجود آلهة يتقرب إليها بهذه الطريقة التي لم تلق قبولا عندهم .

وقد حاول بعض المؤرخين الفرنسيين ومنهم جزل 1913 و ل. جولو L. jouleau أن يذهب إلى إمكانية انتشار الطوطمية بين البربر القدماء، اعتمادا على صور الحيوانات على الصخور . في حين يرى ألفريد بل أن هذه المسألة تخلو من الأدلة ولا يمكن البث فيها بصورة قطعية (6).

غير أن الذي يثبت المؤرخون وعلماء الاجتماع الديني هو اعتقاد البربر في الأرواح الشريرة والجن والعفاريت التي تسكن العالم كله وتتخذ لها أشكالا وصورا مختلفة . إنها تسكن الأحجار والأشجار والحيوان . وهذا الاعتقاد كان راسخا عند البربر منذ القدم ومازال بعضه باقيا إلى يومنا هذا . لم تستطع المسيحية ولا الإسلام، على وحدانيته المطلقة محوه أو القضاء عليه، كما يذهب إلى ذلك ألفريد بل (7). ولعل هذا ما يفسر عبادة البربر وتقديسهم للجبال والصخور والأشجار وغيرها من مظاهر الطبيعة والحيوان (8). ولا يمكننا أن نتصور انتشار هذه الاعتقادات دون أن ترافقها عند سكان المغرب طقوس واحتفالات دينية وعبادات.

ويرى المؤرخ الفرنسي شارل أندري جولي أن لا يمكن أن نعرف بالضبط كيف كانت تجري تلك الحفلات الدينية، ويذهب إلى أن الطقوس اليهودية والقرطاجية ترجع إلى أصل واحد هو الأصل الكنعاني (9).

والأرجح أن تكون هذه العبادات على شيء من البساطة لا مكان فيها للكهنة، ولا توسط فيها للآلهة المجسدة كآلهة القرطاجيين. وهنا يتجلى الفرق بين اعتقادات البربر القدماء البسيطة الخالية من الوسائط والكهنوت وبين ديانات القرطاجيين القادمين من الشرق التي تتخذ فيها الآلهة شكلا مشخصا متميزا عن قوى الطبيعة، وتقام فيها المعابد ذات الكهنوت المحكم التنظيم .

أما المؤرخ اليوناني القلسم هيرودوتس فقد ذهب إلى أن البربر كانوا يدينون بالمجوسية ويعبدون الشمس وربما القمر (10).

وإلى مثل هذا الرأي ذهب ابن خلدون في المقدمة غير أنه يصعب أن نعرف على وجه التحديد ماذا كانوا يعتقدون فيها، ولا بأي شكل من الأشكال كانوا يعبدونها.

ويذهب ابن خلدون إلى أن دينهم كان المجوسية كما كان يدين بها كل الأعاجم في المشرق والمغرب. يقول :

" وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم بالشرق والمغرب إلا في بعض

الأحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم، فقد غزتهم ملوك اليمن ... ودانوا بدينهم "

(11) ويفهم من كلام ابن خلدون أنهم دانوا أيضا بالنصرانية بعد غزو الرومان لهم .

وباليهودية لقرب الشام وفلسطين منهم . " وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر قد دانوا بدين

اليهودية أخذوه من بني إسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم ... حتى

محا إدريس الأكبر الناجم بالمغرب ... جميع ما كان في نواحيه من بقايا الأديان والملل " (12)

ومهما يكن من أمر، فإن ما يمكن الخلوص إليه فيما يخص ديانة البربر قبل الإسلام، أن

هذه الديانة، على غموض بعض طقوسها وغرابة البعض الآخر، لم تكن تتسم بالتعقيد ولا

بوجود الوسائط التي يتقربون بها إلى آلهة كآلهة اليونان أو آلهة الفينيقيين. لقد كانت أرضا

خلوا من الآلهة وقد لاحظ هنري باسيه ذلك بقوله : " وكانت الطقوس السحرية في هذه

البلاد هي دائما جوهر الدين، إنما ليست بلادا صالحة لميلاد الآلهة " (13).

وعندما تغيب الآلهة التي يعتقد فيها القوة والمقدرة على كل شيء يعوضها السحر

والطقوس الدينية وتقديس عناصر الطبيعة .

وكان البربر يتعبدون بالخصوص في المغارات، أو في الأماكن العالية، أو بالقرب من

العيون والأشجار المقدسة بدون أن يحتاجوا إلى تماثيل أو معابد أو كهنة .. (14)

أما أشهر الطقوس الدينية عندهم فقد كانت تتمثل في بعض المراسيم التي كان الغرض من القيام بها هو طرد الشياطين وقوى الشر من المسكن والحقل والقطيع . كما تتم بعد هذه المراسيم شعائر لاجتلاب الخير والبركة (15).

وتمثل اليد المفتوحة رمزا من رموز الإعتقاد عند البربر وهي يد مفتوحة ترجى منها الحماية وطرد الشر والوقاية من العين . و كان الأوربيون يسمونها يد فاطمة ، وهي تسمية لا مبرر لها كما يرى ألفريد بل . وقد رسمت على كثير من التماثيل، ووضعت أشكالها وما زالت توضع إلى الآن على أبواب المنازل وفي كل ما ترجى حمايته وطرد الشر عنه .

إن هذا تخلص متواضع لمظاهر التدين عند سكان المغرب القدماء . وهي مظاهر امتزج فيها الدين المحلي بالعناصر الدينية الوافدة على المغرب . لكن دون أن يفقد أصحاب البلاد مقومات شخصيتهم الدينية و الاجتماعية .

الهوامش

- (1) - شيد الناضوري: تاريخ المغرب الكبير . دار النهضة ، بيروت، 1981. ج 1. ص 172.
- (2) - رشيد الناضوري : تاريخ المغرب الكبير . مرجع مذكور . ص 211.
- (3) - المرجع نفسه . ص ل 211.
- (4) - ألفريد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت . 1987. ص 57 . الطبعة الثالثة .
- (5) - رشيد الناضوري ، تاريخ المغرب الكبير ، مرجع مذكور ، ص 21816
- شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة . الدار التونسية للنشر 1983 . ط 3. ص 120.
- (6) - ألفريد بل : الفرق الإسلامية ، مرجع مذكور، ص 55
- (7) - المرجع نفسه. ص 60.
- (8) - عبد البربر القدماء بعض الأحجار ذات الأشكال المعينة ، واعتقدوا فيها اعتقادات . وقد تحدث بعض كتاب اليونان والرومان عن تقديس البربر للأحجار bétyles.
- (9) - ألفريد بل : الفرق الإسلامية ، مرجع مذكور، ص 57.
- (10) المرجع نفسه ، ص 58 .
- (11) - المرجع نفسه ، ص 87.
- (12) - ابن خلدون عبد الرحمان : تاريخ ابن خلدون. بيروت. دار إحياء التراث العربي . 1999 . ط 1. ج 6. ص 90 و 108.
- (13) - ابن خلدون : المقدمة مصدر مذكور ، ص 108.
- (14) - شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية ، مرجع مذكور، ص 78 .
- (15) - ألفريد بل : الفرق الإسلامية، مرجع مذكور، ص 61.